"ابن بطوطة"

بين طابعين بريديين

عبد الرحيم المؤدن

I – انتمى الطَّابع البريدي الأول إلى مرحلة الستينات من القرن الماضي، صورة ابن بطوطة صورة شيخ، والصورة توسطت الطابع البريدي بمقاييس سنتمترية دقيقة حافظت على تناسب الزوايا الأربع والطابع البريدي اتخذ شكل مستطيل، بطريقة عمودية مما يزكي رغبة الرسام في تخيل شخصية ابن بطوطة. العمودية التي تشرف من عل على متلقي الصورة. وهذا يزيد من تأثيرها وسطوتها على المشاهد. ثمن طابع البريد لا يتعدى 0.20 ، سنتيما (على الزاوية اليسرى السفلية للطابع). وعلى اليمين اسم ابن بطوطة بخط رقيق مكتوب باللغة العربية (خط شرقي)، ورسم الكتابة شاحب أمام نصاعة رسم ثمن البريد الذي جذبت أصفاره، خاصة صفر اليسار، عن الرَّأي وفوق اسم ابن بطوطة الشاحب وجد تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة (1304-1378) (1) حسب طابع البريد .

أما الضلع العلوي المقابل للضلع السفلي، فيقتصر على جملة واحدة (المملكة المغربية) (خط شرقي) أما ضلع اليمين العمودي فقد حمل اسم "ابن بطوطة" باللغة الفرنسية، عموديا، (انظر الطابع)، وبالمقابل حمل ضلع اليسار –عموديا- المملكة المغربية باللغة الفرنسية (الطابع البريدي المشار إليه).

داخل هذه الأضلاع الأربعة، توسطت صورة ابن بطوطة" الطابع البريدي من خلال العناصر التالية :

أ- عنصر الشيخوخة واختمار التجربة كما بدت من خلال اللحية الكثة، الفائحة بالوقار، كما أن نظرة الشيخ تميزت بالهدوء والانتظارية التي يلمسها الرائي في لحظة تأمل ما سيحدث بعد قليل، وكأن بعيدة الشيخ يتابع رساما أو محَدِّثا من جهة، أو لعله يسترجع ذكريات من جهة ثانية، وأضفت العمامة الضخمة ذات التلافيف العديدة المزيد من الوقار والتبجيل على صورة الشيخ.

ب- بالرغم من توفر ملامح الشيخ الوقور في هذه الصورة فإن الرائي يلمس اشتراك الصورة مع صور أخرى واردة في مصادر وكتب كثيرة، خاصة المظان العربية، من خلال الآتي :

- اعتماد ملامح التضخيم بالتركيز على عناصر النوع أو الجنس العربي (استدارة الوجه/ كثافة اللحية) امتلاء الجسد الذي يشف عنه العنق الممتلئ أيضا الخ)

- اشتراكها في نوعية الملابس التي رسختها الرسومات المدرسية أحيانا، والأشرطة والمسلسلات العربية، -أحيانا أخرى- المروجة لأزياء أو ملابس نمطية سوت بين الشخصيات على اختلاف ملامحها وطبائعها. فالصورة الحالية لابن بطوطة قد تشبه صورة "المتنبي" أو "السندباد" وقد تشبه —من ناحية أخرى- صورة التاجر سليمان وشخصيات ألف ليلة وليلة.

- ولا شك أن اكتفاء الرسام "بالصورة اللفظية" الذائعة عن الشخصية، عوض الإستناد إلى الرسم الملموس بسبب انعدام مرجعية التشكيل في الثقافة العربية القديمة، أقول، إن انعدام ذلك، ولد هذا الاستنساخ السهل للشخصيات العربية عبر قواسم مشتركة تمنع المتلقي من إثراء متخيله وإخصابه الناتج عن فرادة الصورة قبل السقوط في الشائع أو المستهلك.

II- ينتمي الطابع البريدي الثاني إلى الألفية الثالثة من هذا القرن (2004)، مربع الشكل ويتكون إطار هذا الطابع من ثلاث طبقات أو طروس.

أ- الطبقة الأولى مشكلة من طرس مستوحى من أسوار الحصون أو القلاع البحرية. وهذا التشكيل المرتكز على تناسبية التناوب متأرجحة بين الفراغ والإمتلاء، بين الخواء والبناء، يلعب دورا جماليا في الوقت ذاته، من خلال التوريق- وهو تقليد مغربي متوارث في البناء المغربي- عبر أنصاف الدوائر التي تفصل بين الواحدة والأخرى عبر الرؤوس الأفقية المستوية البناء. وزادها اللون الأبيض قربا من مرجعية أخرى دعمت الحصانة المادية بحصانة رمزية قد نلمسها في الأضرحة أو رباطات أهل الجهاد البحري المنتشرة على الشواطئ المغربية.

ب- الطبقة الثانية أو الطرس الثاني هو طرس اللوحة العصرية. خطوط المربع هي حدود اللوحة الحداثية المنطلقة مع حداثة الغرب، التي استوحاها الرسام المغربي المنتسب إلى اللوحة الفضاء، عوض اللوحة الإطار كما هو وارد في الطابع البريدي الحالي، والإطار مرسوم بخطوط سوداء، أسهمت في إبراز بياض الأبراج البارزة في الطرس الأول.

ولاشك أن وظيفة هذا الإطار قائمة على إنجاز دورين أساسيين :

- دور الفصل، أي عزل محتوى الطابع، ومضمونه أيضا، عن إطاره الخارجي بهدف تركيز الداخل (المحتوى والمضمون) الذي يجب أن يتحكم في الخارج.

- والدور الثاني يرتبط بالوصل مادام طرس الأبراج فضاء (خارج النص) في حين يمثل الطرس الثاني، بالرغم من تأطيره لمحتوى الطابع، فضاء مندمجا (مع النص) وهو بذلك يلعب دورا "جشطالتيا" -إذا صح التعبير- يحقق إمكانية تجميع عناصر أو محتويات الطابع لتحقيق أهداف معينة سيتم التعبير عنها لاحقا.

الفصل والوصل يتكاملان دون أن يخلقا قطيعة بصرية أو "مضمونية" بين الداخل والخارج، بين التراثي والحداثي الذي سيبرز، جليا، عند تحليلنا لمحتوى الطابع البريدي.

ج- الطبقة، أو الطرس الثالث، يعكس المستويات التالية :

- المستوى المعرفي المجسد في التركيز على العلاقة بين تاريخ ميلاد "ابن بطوطة" الفعلي (1304 م) وتاريخ ميلاده الرمزي (2004) في سياق الاحتفال بالذكري المئوية السابعة- لميلاد الرحالة. وهذا المستوى استفاد من دعم هذا التاريخ المرقم بتاريخ التسجيل، أو الصياغة، باللغتين، العربية والفرنسية، المتقابلتين، يمينا ويسارا، والمؤكدتين على "الذكرى السبعمائة لميلاد ابن بطوطة".

- وهذا المستوى المعرفي يعزف، أيضا ، على جانب التنسيب، أي الإلحاح على نسبة اللغتين السابقتين، "ابن بطوطة" باللون الأحمر- إلى المملكة المغربية التي اعتلت اسم "ابن بطوطة" باللغة العربية مرسومة بالخط الأسود، وفي الأسفل المقابل وجدنا الإلحاح ذاته على المملكة المغربية، باللغة الفرنسية، مرسومة بالخط الأسود أيضا. ولا شك أن عملية التنسيب تلعب دورها الرمزي في إبراز مساهمة بلد ابن بطوطة —المغرب- الحضارية.

- يأتي المستوى الثالث — من الجانب المعرفي لإبراز الدلالة الثقافية العميقة لرحلة ابن بطوطة، من خلال تقابل جديد بين صورة الرحالة — على اليمين- وصورة سفينة شراعية تمخُرُ عُبابَ الأمواج

الزرقاء التي تحولت، عند بطن السفينة- إلى كتاب مفتوح. فالسفينة خرجت من صلب الكتاب مما يؤدي إلى تسجيل حالتين :

- الحالة المعرفية التي استبدت ب"ابن بطوطة" يوم خروجه وهو ابن العشرين، إلى أن عاد وهو ابن الخمسين، فهو بذلك يختلف عن هاجس الربح أو التجارة الذي تَحَكَّم في رحلة "ماركوبولو" على سبيل المثال لا الحصر،

- حالة الذيوع والانتشار الذي عرفته رحلة ابن بطوطة منذ القرن 19 على الأقل إلى الآن في بقاع الدنيا، وحركة السفينة السابحة بين دفتي الكتاب، تعكس هذا الانتشار.

III ننتقل، الآن، إلى المستوى الجمالي (التشكيلي) لكل من الطابعين البريديين، وأول ما يلفت الانتباه الآتي :

أ- اختلاف زاوية الرؤية المتحكمة في تقديم رحلة "ابن بطوطة"، ففي الوقت الذي يخضع فيه الطابع الأول لأسلوب (Portrait) القائم على المحاكاة الدقيقة، من خلال التركيز على تجميد الزمن، في النظرة والملامح ، فضلا عن توزيع عناصر فضاء (اللوحة) بمقاسات سنتمترية متساوية، نجد بالمقابل التركيز، في الطابع البريدي الثاني على " الصورة المسرودة" المتميزة بـــ : (2)

- استنبات بؤرة تحافظ على مكون السفر الدائم من خلال عنصري السفينة من جهة، والكتاب من جهة ثانية، والسفر لا يبقى حبيس الحركة المادية، بل هو سفر الكتابة أيضا.

- رأس ابن بطوطة المنبجس من عمق الأمواج، وهو يرنو إلى ذكرى قريبة أو بعيدة. فالنظرة مشتعلة بالحياة، والوجه طافح بالفتوة بخلاف الطابع البريدي الأول الحامل لرأس شيخ ذي نظرة مستسلمة، وملامح أقرب إلى التجاعيد منها إلى قسمات التميز والخصوصية.

كما أن لحية الطابع الأول لحية الشيخ غير المشذبة، في حين حظيت لحية الطابع البريدي الثاني بالعناية المطلوبة في سن الفتوة. وإذا كانت عمامة الطابع الأول نمطية، فإن عمامة الطابع الثاني ذات خصوصية مغربية، بحكم تشكلها من عنصرين (الطربوش والعصابة) متكاملين بارزين في تقاليد اللباس المغربي التراثي.

- سيطرة اللون الأزرق- وهذا ما يخلو منه الطابع الأول بألوانه الشحيحة- بمستوياته الدلالية المتوزعة بين زرقة السماء وأبعاد الأفق المرتبط بالرغبة في الكشف والاكتشاف، وبين زرقة البحر الحامل لدلالتين بارزتين.

أ- دلالة المغامرة والمعاناة وارتياد المجهول.

ب- دلالة الحكي بحكم تحول الأمواج إلى صفحات عديدة انتهت إلى مجلد ضخم انفتحت دفتاه على حكاية سفينة متعددة الأشرعة. مزهوة بريح طيبة حملت الحكاية –الحكايات- قبل أن تحمل السفينة ذاتها .

- لا يقتصر الاختلاف بين الطابعين البريديين على أسلوب التعامل مع شخصية "ابن بطوطة" ورحلته، كما سبقت الإشارة، بل يمتد الاختلاف إلى نوعية التعامل – وهو لا ينفصل عن الأسلوب- مع "مواد" إنجاز الطابعين. هكذا كان الطابع الأول مشدودا إلى هاجس الرسام المنطلق من تشكيله الشخصية بأسلوب "بيوغرافي" أقرب إلى التوثيق، أما بالنسبة للطابع الثاني فالأسلوب المتبع هو أسلوب صناعة الملصق« Poster » الذي يهدف أساسا إلى الانتشار والوصول إلى أكبر نسبة من المتلقين، وقد ساعده على ذلك الآتي :

أ- استثمار الذكرى المئوية السابعة لميلاد ابن بطوطة باللغتين وبأوضاع مختلفة.

ب- استثمار السنة الدولية ل –ابن بطوطة" من خلال الربط بين تاريخ الميلاد (1304) والسنة الحالية، سنة الاحتفال "أمير الرحالة" وسنة 2004 تكررت بالرقم – وسط الملصق، وأسفله على اليمين- كما أنها تكررت باللغتين من خلال صياغة إعلانية – وإعلامية أيضا- تلح على هذه الذكرى من جهة، وتحفز من جهة ثانية- المتلقي على الانتباه إليها.

ج- استثمار عناصر الإثارة من سفينة وأمواج وكتاب مفتوح ورأس الرحالة بوجهه المشرق وعينيه الذكيتين.

د- هذه العناصر ساهمت في خلق طابع أو - التحسيس به على الأقل- تداولي ساهمت فيه العناصر السابقة من جهة، وبرزت في الملكية الرمزية (اسم الرسام/ حروف مرجعية محددة) فضلا عن المؤسسة المحتفلة بالذكرى (البريد) من خلال اللغتين العربية والفرنسية- وقد توسطهما ثمن طابع البريد (6.50 د.هـــ)، علما أن ثمن طابع البريد الأول لم يتجاوز (.020) العشرين سنتيما. كل ذلك ساهم في إخراج هذا الطابع –الملصق في سياق تسويق- بالمعنى الإيجابي- الرحلة بأبعاد أخرى يمكن تسجيلها على الشكل التالي :

أ- التساؤل حول الرحلة، والرحالة، لم يعد – وهذا وارد – مرتبطا بفضاءات الرحلة (المناطق التي زارها ابن بطوطة)،بل أصبح مرتبطا بصاحب الرحلة. ولعل هذا يفسر التقابل بين رأس ابن بطوطة –

على اليمين- وصورة السفينة على اليسار كلاهما خرجا من عمق البحر، ومن ثم فالتساؤل يرتبط بالشخصية أكثر من ارتباطه، على أهمية المسار.

ب- يصبح الخطاب الإعلاني –الإعلامي- منصبا على تحويل الرحلة من الخارج (فضاءات الرحلة) إلى الداخل (المغرب)، منطلق ابن بطوطة، وموطنه الأصل الذي غادره طوال ثلاثة عقود.

ج- تغيير أفق انتظار المتلقي الذي لم يعد ينتسب إلى مرجعية مشتركة (الدين/اللغة..الخ) بل أصبح المتلقي متعدد المرجعيات والمصادر بالتكيز على عناصر الإثارة (بحر/سفينة شراعية/سماء زرقاء/لباس تراثي/سفر أو مجلد ضخم..الخ) الجاذبة لمتلق محفز بهذه العناصر بهدف جعل رحلة الداخل مرحلة من مراحل الرحلة الخارجية، أو الرحلة الكبرى التي زار فيها "ابن بطوطة" الأقاصي البعيدة.

د- وإذا ربطنا طبيعة هذا الملصق-وخصائصه التشكيلية والجمالية-بالسياق العام للمغرب وإكراهاته، فإن ذلك يؤدي إلى تحول الملصق إلى عنصر من عناصر الحوار حول الرحلة-خاصة رحلة ابن بطوطة- في الحوار مع الآخر من جهة، وفي المنتوج السياحي من جهة ثانية، ولا شك أن من أهداف السائح كما يرى تودوروف. رغبته في التوزع بين أن يكون مستوعبا – بالكسر- أحيانا ومستوعبا– بالفتح- أحيانا أخرى، والخطاب بذلك يهدف إلى خلق نوع من التماهي بين السائح و "ابن بطوطة".

هـ- استطاع الملصق البريدي الثاني- وهو إرسالية مثل باقي الإرساليات- أن يثير أهم- وهناك أسئلة عديدة حول التاريخ والثقافة- الأسئلة المتعلقة بقدرة الصورة على تحويل شخصية "ابن بطوطة" –ورحلته- من طابعها "الموضوعاتي" إلى الطابع الأسطوري. فالمتلقي للطابع البريدي الثاني، يعيد تركيب – من خلال المشاهدة- رحلة "ابن بطوطة" عبر أنظمة دلالية مشدودة إلى الأنساق الفكرية والقيم المتداولة. وعلى هذا الأساس تصبح الرحلة- وضمنها شخصية "ابن بطوطة" - عنصرا أساسيا من تاريخ هذه الأنساق والقيم ، أي تصبح أسطورة يعاد إنتاجها حسب مواقع المرسل، في علاقته بالمتلقي، ومواقعه أيضا، من خلال "سَنَنٍ" محدد قابل للتطور والإضافة دون أن يطوله الفناء أو التدمير.

ولا أحتاج إلى التذكير بأننا نستعمل (الأسطورة) بالمفهوم البارثي (3)، القائم على أن كل أشكال التواصل (صورة/سينما/موضة/تقليد..الخ) تحقق جانبها الأسطوري بحكم انغراسها في مستويات الوعي والسلوك الاجتماعيين. ولعل ذلك هو الملموس في رحلة "ابن بطوطة" -من خلال الطابع البريدي الثاني خاصة- التي تحولت إلى إرسالية (دال ومدلول) أسطورية تم توظيفها في سياق السنن المتداولة بين المتعاملين مع الرحلة، وآخر-وليس آخرا- هذه التجسيدات الأسطورية تحويل

قائمة وجبة الغذاء إلى تسميات مستوحاة من مراحل رحلة "ابن بطوطة" ولحظاتها الدالة. هكذا وجدنا فطور "بلاط إمبراطور الصين" وفواكه المناطق الآسيوية التي زارها "ابن بطوطة" (4).

ولا شك أن المسافة الزمنية الرابطة بين الطابع البريدي الأول والطابع البريدي الثاني، كانت وراء تطعيم أشكال التواصل مع الرحلة وصاحبها. هكذا كان الطابع البريدي الأول يركز صيغ التواصل مع "ابن بطوطة" في سياق الانتصار للتراث والارتباط بالماضي، في حين كان الطابع البريدي ينوع طرائق التواصل الحديثة، مادة ولونا وأبعادا- ليطعم الصورة التراثية- وبعض رواسبها مازالت واردة في اللباس خاصة في الطابع البريدي الثاني- بصيغ جديدة لم تكتف فيه كما هو الشأن في الطابع البريدي الأول بـــ"ابن بطوطة" المجاور بأحد أعمدة الفضاء التراثي، بل انتقلت هذه الطرائق إلى انتشار حداثي "إلى أسطورة" تزداد ترسيخا في الذاكرة والوجدان والثقافة. "إن الصورة تخلق صنفا جديدا من الزمان/أو المكان اللامنطقي بين ال "هنا" وال "هناك" ومن ثم فهي تعزف على انتشار هذه الأسطورة المعاصرة في سياق تحولات العالم الذي بدت فيه سفينة "ابن بطوطة" تمخر عباب رحلة نصية متجددة، بتجديد العلاقة مع هذه الشخصية الفريدة. كانت السفينة- لاحظ العلم المغربي في أعلى الصاري- مقابلا للصورة التي استوحت الأسلوب ذاته في الانتقال بعد أن خرجت من عمق الأمواج. وأهم ما في الصورة- صورة ابن بطوطة – تلك النظرة الرانية إلى أفق أو آفاق لم تبرز الطابع البريدي، بل برزت، أساسا، من خلال ما يتركه الطابع بمكوناته الحكائية في ذات المتلقي من رغبة في السفر ، وحلم - من جهة ثانية - بالتماهي مع شخصية أصبحت ترادف السفر.

هوامش :

1-تاريخ الوفاة مختلف بين باحث وآخر، فقد نجد وفاة "ابن بطوطة" سنة 1368 أحيانا، و1374 أحيانا أخرى.

2- لم تعد الصورة مجرد "أيقون" اعتمد الأشكال والزوايا بل أصبحت الصورة محتاجة إلى اللغة، الحكاية، السرد، كما أورد ذلك العديد من السينمائيين المعاصرين.

3- كما هوالشأن في كتابه الشهير أساطير.

4- يتعلق الأمر بالذكرى المئوية السابعة التي نظمتها مدرسة الملك فهد للترجمة يوم 2004/02/24 من خلال اليوم الدراسي الهام الذي تخللته التفاتة أصحاب الفندق الذكية عبر لائحة « Menu » طعام الغذاء المتوزعة عبر محطات رحلة ابن بطوطة المعادلة للأطعمة المستوحاة من هذه الرحلة.